سهل بن هارون

منبته ونسبه:

ولد سهل بن هارون[١] في مدينة مَيسان بين واسط والبصرة، وفي رواية في دَسْتُميسان، كورة بين الأهواز وواسط والبصرة، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرًا. ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون بن راهبون (راهيون) وكنيته أبو عمرو، فارسي الجنس، أهوازي أو خوزي المولد، عراقي المنشأ، تحوَّل إلى البصرة في سن لم تعرف، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية (وقبة الإسلام وخزانة العرب)، حوت من حصائل[٢] العلم الإنساني أصوله وفروعه، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها، واستنار عقله مما اقتبسه من نور معارفها، فتخرج بعلمائها، وكانوا طبقة عالية في كل مطلب من مطالب الآداب.

---

(١) لم يترجم القفطي لسهل بن هارون في أخبار الحكماء، ولا ابن خلكان في وفيات الأعيان، ولا البيهقي في حكماء الإسلام، ولا السمعاني في الأنساب، ولا الأنباري في طبقات الأدباء، ولا الخطيب في تاريخ بغداد؛ وترجم له تراجم موجزة كل من ياقوت في معجم الأدباء، والصفدي في الوافي بالوفيات، والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون، وابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون، والثعالبي في المضاف والمنسوب. وترجم له كرامر من علماء المشرقيات في معلمة الإسلام؛ واقتصر على ما قاله المترجمون فيه، وفاته أنه كان من رجال الرشيد وقال: إنه لم يجتمع بالجاحظ.

(٢) التحصيل: تمييز ما يحصل، والاسم الحصيلة.

وكانت البصرة بل المملكة الإسلامية أخذت في تلك الحقبة تمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب إلى المجتمع الإسلامي، وعلماء الأمة يتناوبهم الجزر والمد على شاطئ بحر الحكمة القديمة، [illegible] يسبحون في بحار الأفكار، حتى أخرجت عقولهم [illegible] وكانت [illegible] على [illegible] ذُرِّن وحُرر، راغبة كل الرغبة في الأخذ مما لا عهد لها به من علوم الأمم السالفة، وفي هذه البيئة انبعث عقل سهل بن هارون لأول أمره، في أرض صالحة لإنماء العقل وإطلاقه من قيوده. ولم يُعرف إذا كان رحل إلى الروم وفارس والشام ومصر؛ والغالب أنه لم تتعد تنقلاته مدنًا عربية أربعًا، وهي: مدينة الرقة قصبة ديار مضر، والرُّصافة رصافة هشام في أوائل تخوم الشام، واكتفى بالبصرة وبغداد، وكانت بغداد أجمل مدن الأرض في ذاك العصر، وفيها كل شيء جديد، سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها، أو في عقول أهلها ونبوغ علمائها، يُحمل إليها من الآفاق بدائع ما صنع البشر ونَتَجت عقولهم، والدول سوق يحمل إليها ما يروج فيها.

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل، ولا مظهره ومذهبه، ولا أصل أمه وتربيتها، ولا معلميه في بلده، ولا أسانيده في البصرة، ولا أترابه ولِداته في صباه، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الأكبر في تربية الملكات، وتلقين الأخلاق والعادات، يُنشأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص، تتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها؛ ومن المعقول أن يكون قانون الوراثة أورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها، ونظامها وأدبها، وضم إليها الثقافة العربية، فجاءت منازعه خليطًا نافعًا، ومداركه متينة رصينة.

أضف إلى هذا أن مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك، على ما كانت البصرة سيدة البلاد، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل بن هارون أجمل عصور التاريخ، والمُلك موحَّد من المغرب في شمالي إفريقية إلى حدود الشرق، وليس في الأرض حكومة إسلامية غير الأندلس بيد بني مروان: لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج، يشتمل الناس على السلامة، ويغتبطون بما أُوتوا في سلطان بني هاشم، وكلما نجم ناجم من العلويين أو غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه، فضعف النازعون إلى منازعة الخلفاء حبل السلطة. وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب، والملك من ملوك أسيا وأروبا إذا تيسر لقاصده أو سفيره أن يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس يسعد ويعتز في سلطانه، ويعد ذلك نعمة حازها دون أقرانه.

مذهبه وأخلاقه:

قيل: إن سهل بن هارون كان شيعيًّا، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة، ولم يؤثر عنه أن تنقص أحدًا من الصحابة الكرام، وعرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الأحياء، وما أُثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك، ولا سيما في البصرة وبغداد دار السلام. واتهموه بأنه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم على العجم فضلًا، والشعوبي منسوب إلى قوله تعالى: {وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}. ومذهب الشعوبية نشأ على الأرجح بُعَيْدَ عصر الخلفاء، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الإسلام بإبطاله. ولو كان للجنس يفضل المرء في الأمة، ما نزل سلمان الفارسي وصُهيب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية. والدين لا يفاضل إلا بالتقوى.

إذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية غير خائف ولا متلجلج؛ فاعتداله يمنعه إلا أن يقدر لكل عنصر خصائصه، وهو لم يُعَدَّ رجلًا مذكورًا إلا بالإسلام، والأخذ عن علماء العرب، ورقى في مظاهر الدنيا حتى وصل إلى أعظم خلفاء العباسيين هارون الرشيد وعبد الله المأمون، وصار أحد أئمة البيان والحكمة في الأمة العربية، ودُعي لحكمته وعقله «بُزُرْجُمهر الإسلام» وبزرجمهر وزير أنوشروان العادل، من ملوك آل ساسان، اشتهر بالعدل والحكمة.

وصفه الجاحظ فقال: كان سهل سهلًا في نفسه، عشيق الوجه، حسن الشارة، بعيدًا من الفدامة[١]، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف[٢]. وكان الجاحظ مازجه وثافنه. وقيل للحراني -ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره-: بينك وبين سهل بن هارون صداقة فانعته لنا كي نعرف، فقال: هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن حُودث لم يكذب، وإن مُوزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أولت أحيت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه، وناقع لغُلة من أحرَّ إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور. اهـ.

صورتان جمليتان في وصف سهل، صورهما مصوران مبدعان، عاشا بقربه وفتنهما بخُلقه وخَلقه.

---

(١) الفدامة: العي.

(٢) التكشف: الظهور.

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصًا ونوادر، وعدّه الجاحظ من «متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء». قال: ما علمت أن أحدًا جرد في البخل كتابًا إلا سهل بن هارون وأبا عبد الرحمن الثوري. والبخل في الفرس غالب في الجملة، غلبة الكرم على طبائع العرب، فاقتضى ذاك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب، أن يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك، وما شوهد قط تفريط، إلا وإلى جانبه إفراط، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغًا فيه تُراد به النكتة والنادرة.

حكى الجاحظ قال: لقي رجل سهل بن هارون فقال: هَبْ لي ما لا ضرر به عليك. فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم. قال: لقد هوّنت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم؛ ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته. وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟ فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت.

وحكى دِعبِل الخزاعي الشاعر قال: أقمنا يومًا عند سهل بن هارون، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغدائه، فأُتي بصحفة فيها مرَق تحت ديك هَرِم، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة، فلم يجد رأس الديك، فبقي مطرقًا، ثم قال المغلام: أين الرأس؟ قال: رميتُ به. قال: ولِمَ؟ قال: لم أظنك تأكله. قال: ولِمَ ظننت ذلك؟ فوالله إني لأمقت من يرمى برجله فكيف برأسه؟! ولو لم أكره ما صنعت إلا للطِيَرة والفأل لكرهته؛ أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أُريد، وفيه فَرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بصفائها المثل، فيقال: شراب كعين الديك؛ ودماغه عَجَب لوجع الكلية. ولم أر عظمًا قط أهشَّ تحت الأسنان منه، وإن كان بلغ من نُبلك أنك لا تأكله، فعندنا من يأكله، أوَما علمت أنه خير من طرف الجناح، ومن رأس العنق؟

انظر أين رميته؟ فقال: والله ما أدري. قال:أنا والله أدري، إنك رميت به والله في بطنك، فالله حسيبك.

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه، فكتب إليه الحسن: قد مدحت ما ذمه[1] الله، وحسنت ما قبَّحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك، فما نعطيك شيئًا، والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسيًّا أيضًا، ولكنه في الجود آية الآيات وصح من شعر سهل قوله:

ولكنني أبكي بعين سخينة ... على جَلَل تبكي له عين أمثالي
فراق خليل أو شجى يستشفني ... لخلة أمر لا يقوم لها مالي
فيا كبدي حتى متى القلب موجع ... بُثكل حبيب أو تعذّر إفضال
وما العيش إلا أن تطول بنائل ... وإلا لقاء الأخ بالخلق العاني

ومن يقول هذا الشعر، ويقصد هذا المعنى، لا يكون من البخل على ما وصفوا. قال غولدصهير المجري: إن تمدح ابن هارون بالبخل، نزعة من نزعات الشعوبية، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية.

طريقته في الكتابة وتآليفه:

إن رجلًا يفضله الجاحظ، ويصف براعته وحصافته، ويحكي عنه في كتبه، ويظهر إعجابه به إذا ذُكر، ويروي حديثه ومجالسه، هو ولا شك المثل الأعلى في صنوف العلم والآداب، بلغ الذِّروة فيما تفرد به، واشتهر بمعرفته، وكان أهل عصره مجمعين على الإقرار بفضله، قلما يداخلهم الحسد له. كان نسيج وحده في فنه، نابغة

(١) في رواية ياقوت: «لقد مدحت ما دام الله، وحسنت ما قبَّح، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك. وقد جعلنا ثواب عملك، سماع قولك فما نعطيك شيئًا».

في العلم الذي يمتُّ به، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ، وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان، وفي العقل المثل المضروب أنه كان يؤلف الكتاب فينسبه إلى نفسه، فلا يرى الأسماع تُصغي إليه، ولا الإرادات تُيمم نحوه، ثم يؤلف -كما قال عن نفسه- ما هو أنقص منه مرتبة، وأقل فائدة، فينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين، ومن طارت أسماؤهم في المصنفين، فيقبلون على كَتْبها، ويسارعون إلى نسخها.

وطريقة سهل في كتابته لا تكلف فيها، ولا يشاهد فيها الناقد أثر التعمل، فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد. وقيل: إن سهلًا كاتب سلاطين، والجاحظ مؤلف دواوين. وكأن كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها، بعد أن ملكت عليك مشاعرك، وأدخلت السرور على نفسك، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفو الخاطر، ولا يتعمد الجزالة إلا إذا اقتضى الموضوع ذلك، وقلما خلا قوله من نكتة تُحمد له وتحمل عنه. وكأنك في إنشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ، وما تنفع القوالب إذا لم يكن علم الكاتب يُملي، والمظاهر والدساتير مستملية. ففي أسلوبه تقرأ لتتعلم، وفي كثير غيره تقرأ ألفاظًا جميلة، وقوالب محكمة. وفي كلمه الطيب تقع على إشباع المعاني، وتقطيع الجمل، والإبلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع، وتفعل البلاغة فعلها في نفسك من طريق الإقناع والبرهان، لا من مجرى التقفية والزخرف، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات.

كان سهل يقول الشعر، وأكثر شعره مما أملاه قلبه، في غرض خاص من أغراض المجتمع، وعدَّه الجاحظ من الخطباء والشعراء، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار، والكتب الكبار المجلدة، والسير الحسان المولدة، والأخبار المدونة. ولقبه مرة بالكاتب، ولعل لقب الكاتب في شرفه كان أكبر من عالم

أو عِدْلًا له. وذكره ابن النديم في البلغاء، وقال: إنه شاعر مقلّ، وعدَّه في الشعراء الكتاب، وقال: إنه كان ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم، هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة. وشعره خمسون ورقة.

أما الدهشة ففي تآليفه؛ فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب أسباسيوس (أسانوس) في اتخاذ (اتحاد) الإخوان، وكتاب أسد بن أسد، كتاب سحرة العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة. كتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين (في رواية الضربين)، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، في حسن نظمه، وقد صنفه للمأمون. ومن تآليفه كتاب الهزلية (الهذلية وفي رواية الهنبلية) والمخزومي، كتاب الوامق والعذراء (العذار)، إلى غير ذلك من المصنفات، ومنها ما عارض به كتب الأوائل.

ولا تعجب إذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والأسمار، فإن من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه، وصعب عليك أن تثقفه وتخلّقه بالأخلاق الفاضلة، إلا في قالب ظاهره هزل وإحماض، وباطنه تعليم وإرشاد؛ ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب، مما يلذ المطالع ويفيده، يلقي عليه حكمة بالغة، على نحو ما يفعل معظم القصصيين من أهل المدنية الحديثة. وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل، لأن كتاب كليلة ودمنة اشتهر أكثر من اشتهار ثعلة وعفرة أوغير ذلك من الأوراق التي كسرها سهل على القصص. ولا تدل أسماء كتبه على أنه كتب في موضوع أشبه بديني اللهم إلا كتابه في القضاء؛ أما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على أنه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب؛ وجميع كتبه مما أبادته الليالي.

حياته السياسية:

لم نهتد إلى زمن انتقال سهل من البصرة إلى بغداد، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه، وعن سنة ولادته، وغاية ما ذكر في ترجمته أنه كان مختصًّا بالفضل بن سهل أخي الحسن بن سهل وزيري المأمون، وأن الفضل قدمه للمأمون، ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول: إن سهلًا كان من رجال الرشيد، وإنه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرْبِيًا على أمسه، مقصّرًا عن غده. فقال الرشيد: يا سهل مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القول. فقال سهل: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدًا تقدمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أمس خير بني لُؤي ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تزيد الخير ضعفًا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على أن سهلًا اتصل بالرشيد، والمأمون حدث صغير، وأن سهلًا كان معروفًا برواية الشعر والحديث أيضًا. وقد شهد مقتل البرامكة في سنة (١٨٧).

وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: «إن سجّاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درًّا، ويُحيله المنطق السريُّ جوهرًا، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما. ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه، فدْمَين عَيين[1]، وجاهلين أميين. ولقد عُمّرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامه، وهم يرون أن البلاغة

(١) الفدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم، والفدم: الأحمق الجافي (ج) فُدام، والعي: الذي لايستطيع النطق.

لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولُباب الكرام، ومِلح الأيام: غشق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثيرَ أيام من سواهم، من لدن آدم أبيهم، إلى النفخ في الصور، وانبعاث أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال خلال الخير فيهم، إلى ملء الأرض مثلهم، في جنب محاسن المأمون، كالنفثة في البحر، والخردلة في المهمة القفر».

وهذا الكلام على ما فيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مبالغة لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه، ومن الصعب أن يتجرد المرء عن دمه الذي ورثه.

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال: إن الرشيد لما قتل جعفرًا بعث إليه، وكان معه في الرَّقة يُحصِّل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد، ولما حُمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليه، قد كلفه إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها، فلبس ثياب أحزانه؛ لأنه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال: فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذُّعر في تجريض[1] ريقي، والتمايد في طريقي، وشخوصي إلى السيف المشهور ببصري، فقال: «إيهًا يا سهل، من غمط نعمتي، واعتدى وصيتي، وجانب موافقتي، أعجلته

(١) القدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم، والقدم: الأحمق الجافي فدام، والعى والعي: الذي لا يستطيع النطق.

عقوبتي» قال: فوالله ما وجدت جوابها حتى قال: ليفرَخ[١] رَوْعك، وليسكن جأشك؛ وتطب نفسك، وتطمئن حواسك، فإن الحاجة إليك، قرَّبت منك، وأبقت عليك، بما يبسط منقبضك، ويطلق معقولك، فاقتصر على الإشارة دون اللسان، فإنه الحاكم الفاصل، والحسام الناصل، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول:

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل: فوالله ما أعْلَمُني عَييت بجواب أحد قط، غير جواب الرشيد يومئذ؛ فما عولت في شكره والثناء عليه إلا على تقبيل يديه وباطن رجليه، ثم قال لي: اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد، ووهبتك ما ضمُنّته أبنيته وحوى سُرادقه؛ فاقبض الدواوين وأحصِ حباءه وحباء[٢] جعفر، لنأمرك بقبضه إن شاء الله. قال سهل: فكنت كمن نُشر عن كفن، وأُخرج من حبس، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار.

وبذلك تبينت منزلة سهل، وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد، ومع ما كان له من الإجلال في الصدور، خاف يوم النازلة بالبرامكة - و(البرامكة من محاسن العالم، ودولتهم من أعظم الدول، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها)- خاف أن تضمه القافية لصحبته لهم، وامتزاجه بهم؛ وناهيك به يومئذ من موقف صعب، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء، ويضن بعظيم من رجاله لأسباب تافهة، فأبقى على سهل بن هارون؛ لأنه من مفاخر الملة والدولة. لا جرم أن سهل بن هارون كان في سياسته من حزب الحكومة أو الحزب المعتدل،

---

(١) فرخ الروع تفريحًا: ذهب، كأفرخ والرجل فزع ورعب، والروع: الفزع.

(٢) الحباء بكسر الحاء: العطاء بلا جزاء ولا من.

تعزب فطرته عن التطرف، ويرى المصلحة في التآلف، ويعدُّ الخروج عن سبيل الجماعة خروجًا عن الطاعة.

والغالب أن عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة (١٩٣)، ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة أربع سنين وثمانية أشهر وكسر؛ فالتزم على ما يظهر بيته، واعتزل الفتنة، حتى إذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل بن هارون من خاصته، كما كان من خاصة أبيه الرشيد من قبل. وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقلّ سهل بن هارون؛ وقد دخل عليه يومًا والناس على مراتبهم، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل على الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تَعُون، وتشاهدون ولا تَفْقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تُنصفون؟ والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمكم، وعجمكم كعبيدكم؛ ولكن كيف يعرّف بالدواء من لا يشعر بالداء. فرجع المأمون فيه عن الرأي الأول؛ وفي ذلك أيضًا من حسن المأتى، ولطف المدخل والمخرج، ما يعرفه المبتلى بعشرة الملوك والعظماء، ولا سبيل إلى الدخول على أكثرهم إلا بهذه الطرق من التلطف والتزلف، وإن لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون، وهما ما هما في العقل والعلم والعدل. وأخرى وهي أن سهلًا بكلامه هذا، ضرب الحاضرين مجلس المأمون في الصميم، وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية، فنسبهم إلى السكوت في مواطن القول، وإلى القصور في ميدان الاستحسان؛ ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة، كان حريًّا أن لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء، وهذا من دهائه الكسروي.

رجع المأمون عن رأيه في سهل، وعرف أنه الرجل كلُّ الرجل في صورته وعقله ومفاكهته وغنائه وأدبه، فقربه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده، وكان

سهل قد أسن بالطبع، ويعرف المأمون مذ كان طفلًا عند الخليفة والده. ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جِدّ في جماع أموره، بيد أنه لم يقبل باصطفائه إلا بعد اختباره، وعندما وقع عنده على أمور تفرد بها، وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء، وهم عشرة اختيروا له من مائة.

حياته العلمية:

كان المأمون مولعًا بكتب القدماء والفلاسفة، وعُدَّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي، فأنشأ دارًا جمع فيها كل ما طالت يده إليه من كتب العلم باللغات المختلفة، وكانت جزيرة قبرص في ذاك العهد تَشْغَب كثيرًا على الخلافة، وقد سبى عمال الرشيد أهلها مرة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى المأمون هادن صاحب قبرص، وأرسل إليه يطلب خزائن كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد أبدًا فيما قيل، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته، وذوي الرأي في بلده، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانًا واحدًا فإنه قال: الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها؛ فأرسلها إلى المأمون، ثم صالح المأمون صاحب الروم ميخائيل الثالث على أن يدفع إليه ما عنده من كتب القدماء، وأرسل بعوثًا من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة، فوق ما حمل إليه من الشرق والغرب؛ وجعل سهل بن هارون خازنًا لها، وسماها «بيت الحكمة» وجعل معه عالمًا اسمه سلمة الحراني، كما جعل شريكًا له سعيد بن هارون.

ولا شك أن سهلًا تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها، بما لم يتهيأ لغيره الوصول إليه؛ خصوصًا وهمة الخليفة منصرفة إلى ترجمة

كتب الفلسفة والعلوم والصناعات؛ لا يهنأ له بال حتى تمسي الخزانة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا، على ما هي تامة في علوم الدين.

اتسع الأفق أمام عقل سهل، ولم تقف به الهمة عند الأخذ من كتب الفرس، بل تعدتها إلى الأخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف، خصوصًا وانتقاله إلى بغداد بعد البصرة جاء متممًا له بغيته، وكان اختلاطه برجال الخلافة -وهم من كل صنف ونحلة وجنس- معوانًا له على الكمال، وقد يستفيد المرء بالعشرة والتلقي، ما لا يستفيد من تصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل.

ذكروا أن سهل بن هارون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له؛ أي أنه كان له منصبان: الإشراف على خزانة المأمون؛ أي خزانة كتبه الخاصة، والنظر على دار الكتب التي سميت «دار الحكمة» أو «بيت الحكمة»، وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد، وفي ذلك ما يشعر بأن المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره، ولا يقنعه منه انصرافه إلى المصالح العامة فقط.

نثره وشعره:

إن النزر القليل الذي وصل إلينا من كلام سهل بن هارون لا يكفي في الحكم عليه. ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة: «اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدمًا، قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة، شاهد على وَهْن العقيدة، وتقصير الروية، ومضرٌّ بالتدبير، ومخلٌّ بالاختيار، وليس في نفع تحمد به عوضٌ عن فساد المروءة، ولزوم النقيصة». قال الحصري: «وكتابه هذا مملوءٌ حكمًا وعلمًا»، وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر:

عدو تلاد المال فيما ينوبه ... منوعٌ إذا ما منعه كان أحزما

مذلل نفس قد أبت غير أن ترى ... مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب إلى صديق له أبلَّ من ضعف: «بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها، والشَّكاة في حلولها وارتحالها؛ فكاد يَشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتُذْهل الحيْرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى وارتياحًا للأخرى».

وقال لجارية له رومية أعجمية: «إن أقل ما ينطوي عليه ضميري من رسيس[1] حبك، لأجَلُّ من كل جليل، وأكثر من كل كثير».

ومن كلامه يعزّي: التهنئة بآجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصيبة. وقال في المعنى: مصيبة في غيرك لك ثوابها، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها. وقال: حق كل ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها. وقال: تعلموا العلم، فلأن يذم الزمان لكم، خير من أن يذم بكم. ومن كلامه: العفو الذي يقوم مقام العتق، ما سلم من تعداد السقطات، وخلص من تذكار الزلات. وكتب إلى جعفر بن يحيى:

إذا مـا أتـى يـوم يفـرق بيننـا ... بمـوت فكـن أنـت الـذي يتـأخر

وقال: الصديق لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له؛ أي لا يعتدُّ به. وقال: من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها؛ ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها. ومن كلامه: كانت زورة فلان أخف من حسوة طائر، ولمعة بارق، وخلسة سارق. وقال: من فضل الجواب على الابتداء، أن الابتداء يوجد في الجواب، ولا يوجد جواب في ابتداء. ومن كلامه: مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف. وقال: لو عرف الزنجي فضل حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل جميل البيان، لما نزع ثناياه.

---

(١) رس الحمى ورسيسها: أول مسها.

قال محمد بن زياد الزيادي البصري: وجِدت[١] على سهل بن هارون في بعض الأمر فهجوته فكتب إليَّ: «أما بعد، فالسلام على عهدك، وداعَ ذي ظن بك، في غير مَقْلِية[٢] لك، ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك، إلى أوان فيأتك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك، والسلام». وكتب في أسفل الكتاب:

إن كنت أخطأت أو أسأت ففي ... عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ ... فجد بما تستحق من حسَن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق، يُهجى، وهو يسترضي هاجيه.

ومن محاسن تعريضات سهل أنه خاطب بعض الأمراء فقال له: كذبت. فقال: أيها الأمير إن وجه الكذاب لا يقابلك -يعني: الأمير بذلك- لأن وجه الإنسان لا يقابله. ورويت هذه النكتة لغيره.

ومن جميل تأويلاته وذكائه قوله: إن عدد حروف العربية ثمانية وعشرون حرفًا، على عدد منازل القمر، وغاية ما تبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم السبعة. قال: وحروف انزوائد اثنا عشر حرفًا، على عدد البروج الاثنى عشر. قال: ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف، وهي أربعة عشر حرفًا، مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض، وأربعة عشر حرفًا ظاهرة لا تدغم مثل بقية المنازل الظاهرة، وجعل الإعراب ثلاث حركات: الرفع والنصب والخفض؛ لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات: حركة من الوسط كحركة النار، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض، وحركة على الوسط كحركة الفلك.

---

(١) وجد عليه -بكسر الجيم وضمها-: غضب.

(٢) بغض.

وحكى الجاحظ أن أبا الهذيل العلاف المتكلم سأله رُقعة يكتب بها إلى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته؛ فكتب رقعة وختمها ودفعها إليه، فأوصلها إلى الحسن، فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهذيل وإذا فيها مكتوب:

إن الضمير إذا سألتك حاجة ... لأبي الهذيل خلاف ما أبدى
فامنحه رَوْح اليأس ثم امدد له ... حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفًا ليحسن ظنه ... في غير منفعة ولا رِفد
حتى إذا طالت شقاوة جَده ... وعنائه فاجْبَهه بالرد
وإن استطعت له المضرة فاجتهد ... فيما يضرّ بأبلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها: «هذه -لك الويل- صفتك لا صفتي»، وأمر لأبي الهذيل بألف دينار؛ فعاد إليه فعاتبه، فقال سهل: تُرى أين غرب عنك الفهم؟ أما سمعت قولي: إن الضمير خلاف ما أُبدي؟ فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ: هذه من مغالطات سهل وبلاغته.

وروى الثعالبي قال: (حاجة أبي الهذيل) يضرب مثلًا للحاجة، يسألها الإنسان لغيره، ويضمر ضد ما يظهر، ولا يحب قضاءها، إما بخلًا بجاهه، وإما لحاجة أخرى في نفسه. قال: وكان أبو الهذيل سار إلى سهل بن هارون الكاتب، وكان خاصًّا بالحسن بن سهل يسأله الكلام في أمره، ويستعينه على ضائقة دفع إليها، فقسار سهل إلى الحسن فكلمه وقال له: قد عرفت أيها الأمير حال أبي الهذيل ومحله وقدره في الإسلام، وأنه متكلم قومه، والرادّ على أهل الإلحاد، وقد فزع إليك لإضاقة هو فيها، فوعده أن ينظر له ما يصلح حاله، وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ -بعد أن كلم الحسن بن سهل بشأن أبي الهذيل- شيئًا من الفتور، فلما أُريد على الشفاعة بأبي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الأبيات، ومع هذا ما خلت من نكتة

جميلة. وكان أبو الهذيل يأخذ من السلطان في كل سنة ستين ألف درهم ويفرقها على أصحابه.

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلًا:

من كان يعمر ما شادت أوائله ... فأنت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق أن تأبى فعالهم ... وأنت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل:

إذا امرؤٌ ضاق عني لم يضق خلقي ... من أن يراني غنيًّا عنه بالياس
فلا يراني إذا لم يرع آصرتي ... مستمريًّا دِررًا منه بإبساس
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ... ما كان مطلبه فقرًا إلى الناس

ومن شعره:

أعان طرفي على جسمي وأعضائي ... بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غرًّا بما تجني عليَّ يدي ... لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

ونسبوا لسهل قوله:

خلٌّ إذا جئته يومًا لتسأله ... أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

هذا هو الشعر الذي يسميه الإفرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) وهو كثير في شعر العرب تتجلى فيه مرآة شعور صاحبه، وما يمليه عليه قلبه، ويزينه له طبعه.

ومن بدائع سهل: القلم لسان الضمير إذا رَعَف أعْلن أسراره، وأبان آثاره، وكان يقول: اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من

ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم. وكان يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة؛ كما أن التوقي على الدواء أشد من الدواء. وقال: بلاغة الإنسان رِفق، والعيُّ خرق، وكان كثيرًا ما ينشد قول شُتيم بن خويلد:

ولا يَشْبَعون الصدع بعد تفاقم وفي رفق أيديهم لذي الصدع شاعب

وقال: «لا يُقدم على الخطبة إلا اثنان: فائق أو مائق؛ أما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع، وأما المائق فإنه لا يبالي أخطأ أم أصاب». وقال: «لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جليلًا بهيًّا ولبيبًا نبيلًا، وذا حسب شريفًا، وكان الآخر قليلًا قميئًا[1]، وباذّ الهيئة[2] دميمًا، وخامل الذكر مجهولًا، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم، على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له، ولصار التعجب منه سببًا للعجب به، ولكان الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم؛ لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف، وكلما كان أظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع؛ وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم منه أكثر.

---

(١) القمي: الصغير الذليل.

(٢) باذّ الهيئة: رثها.

والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في ملك غيرهم. وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعظم نفعًا، وأكثر في وجوه العلم تصرفًا، وأخف مؤنة، وأكثر فائدة؛ ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التليد».

إلى أن قال: «فإذا كان الحب يعمي عن المساوي، فالبغض أيضًا يعمي عن المحاسن، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور، إلا عالم حكيم، ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا قوي المنَّة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسواد الأكثر».

وقال: للسلطان سكرات، فمنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط؛ ولذلك قيل: قد خاطر من لجج في البحر، وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان. وقال: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وأولى من هذا بالحجة قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله: فيم الجمال؟ فقال: في اللسان.

وقال: ليس الرِّيُّ عن التشاف، من عاش غير خامل المنزلة، وأفضل على نفسه وأصحابه، فهو وإن قلَّ عمره طويل العمر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق، وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس، فهو وإن طال عمره قصير العمر؛ قد يبلغ الخضم القضم، ويركب الصعب من لا ذلول له -والكلام الأخير من أمثال العرب- المعنى في التشاف أن يشرب الرجل الشفافة كلها، وهي بقية الماء في الإناء. يقول قد يروى

الشارب قبل بلوغ تلك، ومعنى المثلين الحض على الرضا بيسير الحاجة إذا أعوزه جليلها.

ومن كلامه: المَلِكُ صبي الرضا، كهل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح، يخلط الجد بالهزل، ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب، وربما أحفظه الذنب اليسير، وربما أعرض صفحًا عن الخطب الكبير، أسباب الموت والحياة متعلقة بطرف لسانه، لا يعرف ألم العقوبة فيبقى، ولا يؤنِّب على بادرة فينتهى، يُخطئُ فَيُصَوَّبُ، ويصيب فيفرَّض، مفتون الهوى، فظ الخليقة، أخرق العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعلم من عنايته، وطول صحبته، أن يقتله بخطرة من خطرات مَوجدته، ثم لا ينفك أن يُخْطب إليه موضعه، فلا الثاني بالأول يعتبر، ولا المَلِكُ عن مثل ما فرط منه يزدجر.

وقال سهل للفضل بن سهل: إن الحاجب أحد وجهي الملك يعتبر عليه برأفته، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته؛ فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة، معروفًا بالرأفة، مألوفًا منه البر والرحمة، وليكن جميل الهيئة، حسن البسطة، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله، ومُرْه فليضع الناس على مراتبهم، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم، وليعط كلًّا بسطة من وجهه، وليستعطف قلوب الجميع إليه، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته، ولا أن يمنع في مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئًا يستحقه، ولا يمنع أحد من مرتبته، وليضع كلًّا عند منزلته وتعهده، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته وبتزيين أمره.

وقال سهل يومًا وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغب عن بعض العلم، كما يُرغب عن بعض الحلال. قال المأمون: قد يسمي بعض الناس الشيء علمًا وليس بعلم، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي

ذكرنا، ولو قلت: إن العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا تستقصى أصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا كان الأمر كذلك، فابدءوا بالأهم فالأهم، وابدءوا بالفرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلًا وقولًا صدقًا.

ويقال على الجملة: إن من الندرة أن يتم لإنسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل، فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة، ثقفه المحيط العربي في أرقى بيئة عهدت في التاريخ العربي، وجاء في عصر زاهر، ودخل في أمة قوية فتية، فرفعه علمه وفصله إلى أعلى مقامات الفصل والنبل، وهيَّئا له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الأدب العربي، وساعده على ذلك طول أجله؛ إذ لو فرضنا أنه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين، وقد قبض سهل إلى ربه في سنة أربع وثلاثين ومائتين على رواية الصلاح الكتبي، وقال ياقوت: سنة ٢١٥، والرشيد تولى الخلافة سنة إحدى وسبعين ومائة؛ وإذا فرضنا أنه اتصل بالرشيد في منتصف عهده، فلا يكون سهل عُمِّرَ أقل من تسعين سنة. ومن بورك له بأيام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجئ من المعتبط كهلًا أو شابًّا.

أثره الباقي:

من أجل ما أُثر لسهل بن هارون من الكتب، بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفًا عن سلف، كتابه إلى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل، وتتبعوا كلامه في الكتب، قال في فاتحته يُحاجّهم: «بسم الله الرحمن الرحيم: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلَّمكم الخير، وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم خياءً من الفرار، وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل

عيّابًا، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من عيب، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى مرشدًا، أو تغري بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وصلاح فاسدكم، وإبقاءَ النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم. ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}. فما كان أحقكم في كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، على ما رعيناه من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفضلًا، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلًا، وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة، ألا يزال يُتذكر زلل المعلمين، ويُتناسى سوءُ استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بتعمد المعذولين».

بدأ بتقريع أهله والناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم، في إيثار كزازة اليدين على بسطهما، وأنه أراد بإرادتهم على الخير تعليمهم، وحفظ فضل أموالهم، وأنهم أخطئوا في سوء فهم مراميه، ولم يرعوا له حرمة ولا ذمامًا؛ وذكرهم بحكمة جميلة، وهو أن الناس يتذكرون خطيئات المعلمين، ولا يذكرون جهل المتعلمين، وعبر عنه بسوءِ الاستماع، وهو من أرق التعابير، وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح. وبعد أن بلغ من قوله هذا الحد، وبسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله، ودعوة الناس إلى طريقته، وأبان أنه اشتهر بها في العالم، وأنها مما لا يعده ثلمة في الشرف، بل فضيلة من فضائل النفس، بعد هذا أخذ يخاطبهم ويورد لهم الأمثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة، قال:

«عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرًا، كما أجدته فطيرًا، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه، وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه ورحمه- لأهله: أملكوا العجين[١] فإنه أحد الرّيعين. وعبتم عليَّ قولي: من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي، فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشف من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلًا على الماء، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه، لخرج أوله على كفاية آخره، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه؛ وقد قال الحسن وذكر السرف: إنه ليكون في الماعونين الماء والكلأ، فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ».

بسط قاعدته في البخل بسطًا بديعًا، وبدأها بما وقع له في الماء، ثم ثنى في الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولًا إقناع مخالطيه بأن الناس طبقات، وليس من الإنصاف أن يأكل السيد كالمولى، فإن إطعام الموالي والعبيد أطعمة وثمارًا لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها، ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها إذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم، وأشار إلى نهم الأولاد، وسوء إدارة النساء، قال:

«وعبتموني حين ختمت على سلّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رُطبة غريبة على عبد نَهِم، وصبي جشع، وأَمة لكعاء[٢]، وزوجة خرقاء، وليس من

(١) شدوا عجنه.

(٢) امرأة لكاع كقطام: لئيمة، والأمة: الجارية.

أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوى في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات. وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف؟ ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن، وعلف حماره السمسم المقشر؛ فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق، وختم على كيس فارغ، وقال: طينة خير من ظِنّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم من ختم على شيء».

ثم تحول في كلامه إلى ذكر أمور جوهرية في الحياة، ذات شأن خطير في تدبير المنزل، كالطعام واللباس، مستشهدًا على صحة قضيته بهدي الرسول، وإيراد أمثلة ممن يقتدى بهم في هذا الباب من الناس، فقال:

«وعبتموني حين قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إذا طبختم لحمًا فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحمًا أصاب مرقًا».

وعبتموني بخصف النعل[1]، وبتصدير[2] القميص، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ، وأرقى وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، والتفريق من التضييع، والاجتماع مع الحفظ. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع إصبعه ويقول: «لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدى

(١) خصف النعل: خرزها.

(٢) شد البعير بالتصدير: هو حبل يشد في صدره.

إليَّ كراع أو ذراع لقبلت». ولقد لفَقَت سُعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض. وكان في ثوب عمر رقاع أَدم. وقال: من لم يستحِ من الخِلال خفت مؤنته، وقلَّ كبره. وقالوا: لا جديد لمن لا يلبس الخَلق.

وبعث زياد رجلًا يرتاد له محدّثًا، واشترط على الرائد أن يكون عاقلًا مسددًا، فأتاه به موافقًا فقال: أكنت ذا معرفة به؟ قال: لا ولا رأيته قبل ساعته. قال: أفناقلته الكلام، وفاتحته الأمور، قبل أن توصله إليَّ؟ قال: لا. قال: فلم اخترته على جميع من رأيته؟ قال: يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جُدُدًا وثيابه لُبُسًا، فظننت به الحزم. وقد علمنا أن الجدد في موضعه دون الخَلق. وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدرًا، وبوَّأ له موضعًا، كما جعل لكل دهر رجالًا، ولكل مقام مقالًا، وقد أحيا بالسم، وأمات بالغذاء، وأغص بالماء، وقتل بالدواء، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف يد عنز، وأمر بذلك النعمان. وقال عمر: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة. وقال رجل لبعض السادة: أهدي إليك دجاجة. قاال: إن كان لا بد فاجعلها بياضة. وعد أبو الدرداء العُراق جَزَر البهيمة[1]».

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد، أراد بها تعليم المتنقصين له درسًا نافعًا في الترتيب والنظام، وألقى عليهم مثلًا حسنًا لا يسع حتى المسرف أن ينقضه، وقد شفع كلامه بأمثلة ليس في مقدور أحد إنكارها، ولا تبلغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف، أن يقول: إن من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة. وبعد ذلك التفت

(١) العراق: العظم أكل لحمه، والجزر بالتحريك: أرومة تؤكل.

التفاتة أخرى، وبيَّن لخصومه فضيلة الإمساك في المال والحرص عليه، لما يجلب الاستهتار من العوز فقال: «وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، أن يرى أكرومته، ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون مُعَمَّرًا وهو لا يدري، وممدودا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور، مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب، فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا.

وعبتموني حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع، وأن الحفظ إلى المال المكتسب، والغنى المجتلب وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب أسرع، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف للغني قدره، فقد أذن بالفقر، وطاب نفسًا بالذل.

وعبتموني بأن زعمت أن كسب الحلال مُضَمّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وأن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق، وأن الإنفاق في الحقوق حجاز دون الهوى، فعبتم عليَّ هذا القول وقد قال معاوية: لم أرَ تبذيرًا قط إلا وإلى جانبه حق مضيَّع. وقد قال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه، فإن الخبيث إنما ينفق في السرف.

وقلت لكم بالشفقة عليكم، وبحسن النظر مني لكم، وبحفظكم لآبائكم ولما يجب في جواركم، وفي ممالحتكم وملابستكم، وأنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم جائحة، لم يرجع إلى بقية، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا مع موت الجميع. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمَة، وفي ملك الشاة والبعير، وفي الشيء الحقير اليسير: فَرّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين. وقال ابن سيرين لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قال: نفرقها في السفن، فإن عَطِب بعض سلم بعض؛ ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء وهي صَنَاعٌ[1]».

وبعد هذا الكلام الممتع، مثَّل سهل صورة جديدة في الأخلاق العارضة على من استغنى، وحذَّر من الوقوع فيها لئلا تؤدي إلى الفقر، وهو أبشع ضروب المظاهر، وبيَّن العلة في قوله: إن المال مقدم على العلم؛ لأن بالمال يكتسب العلم، ويعرف قدر العلم فقال:

«وقلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى سكرة، وإن للمال نزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله. فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة: ليس أحد أقصر عقلًا من غنيٍّ أمِنَ الفقر، وسكر الغني أشد من سكر الخمر. وقلتم: قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله، وفي خطبه بعد سائر كلامه؛ فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد:

عـــدو تِـــلاد المـــال فـــيما ينوبـــه ... منـــوع إذا مـــا منعـــه كـــان أحزمـــا

---

(١) صناع: حاذقة.

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد:

وخليقتان تُقَى وفضل تحرّم ... وإهانة في حقه للمال

وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم، لأن المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وأني قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة نعمى؛ وقلتم: كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماءُ أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء. قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيءٌ ترى حاجة الجميع إليه، وشيءٌ يغني فيه بعضهم عن بعض؟

وعبتموني حين قلت: إن فضل الغنى على القوت، إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أُحد ذهبًا، لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة من يخدمني عليه. وقال أيضًا: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه غرّ في قلبك، وشبهة في قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيمًا، والنفع به عظيمًا».

وختم كتابه في أنه لن يبدل من خلقه في الشح، وفي الدعوة إلى تزيينه للناس، وأورد جملًا لجماعة من المشهورين بالعقل، وذكّر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل أن يذكروا ما لهم، وذلك بقوله:

«ولسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء

باتخاذ الدجاج. وقال: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم اجعلوا أحد قسمي الجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق رحمه الله: إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد، وكانوا يبغضون أهل البيت اللحِمِين[١]. وكان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالًا. ونهى أبو الأسود الدؤلي، وكان حكيمًا أديبًا، وداهيًا أريبًا، عن جودكم هذا المولَّد، وعن كرمكم هذا المستحدث. فقال لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله، فإن الله أجود منك. وقال: درهم من حِلٍّ يخرج في حقٍّ خير من عشرة آلاف قبضًا[٢]. وتلقَّط عُرُنْدا[٣] من بريم فقال: تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يومًا إلى الليل. وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة، فنهاه بعض المسرفين فقال: إيهٍ ابن العبسية، إن مرفقة المرء رفقه في معيشته. فلستم عليَّ تردون ولا رأيي تفندون؛ فقدموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم، والسلام» اهـ.

خاتمة:

وبعد فهذه صفات سهل بن هارون، وهذا نثره، بل هذا فكره وعقله؛ تعرفنا على الجملة بالقليل المأثور عنه، طريقته وحقيقته، وعلمنا كيف يبالغ في تنوق كرائم ألفاظه، ويسلكها في سلكه، ويرصعها في عقوده، فتجيءُ جزالة من دون تعمل، وسلاسة من غير ما تبذل، ونمطًا غالبًا من السهل الممتنع، يتدفق حكمة، ويسيل بيانًا.

---

(١) الذين يكثرون أكل اللحم.

(٢) مال الغنيمة قبل أن يقسم.

(٣) الجملة محرفة ولعل العبارة «عرما من ثرتم» العرم: بقية القدر، والثرتم: كقنفذ، ما فضل من الطعام والإدام في الإناء والقصعة.

سهل بن هارون أحد أفراد قلائل، زانوا بما صاغوا من الكلام أدب العرب، واختطوا لمن بعدهم التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي، وكلامه في بابه لباب البلاغة، ومثال الفصاحة، لا تَبلى جِدّته على وجه الأيام، ولا يحتاج في الحُكم عليه إلى محكمة نقض وإبرام.

obeikandl.com